تراجم

أنا المغربيّ المشرقيّ حمية
أذب عن القطرين بالسيف والسهم
بسيفِ لسانٍ يفلق الصخرَ غربُهُ
وسهم بنانٍ صائبٍ ثُغرة المرمي

محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي

يهدف هذا المقال إلى التعريف بعلم من اعلام اللغة العربية ووجه بارز من وجوهها في عصرنا الحاضر، شاع صيته في الآفاق وطوف في المشرق والمغرب، مكث في الحجاز دهراً في عهد شرفاء مكة، وحل بتركيا أيام السلطان عبد الحميد الثاني، وكانت له جولات بين الأندلس وفرنسا وبريطانيا، وانهى عمره في قاهرة المعز مقرباً من محمد عبده وغيره من كبار العلماء والأعيان المصريين.

الدكتور
سيدي احمد بن احمد سالم
نواكشوط – موريتانيا

نريد إذن أن نعرِّف بمحمد محمود بن التلاميد. ولكن لماذا نعرف بمعروف، اليس من الإنصاف ان نهتم بالمغمورين ونعطيهم حقهم من التعريف مادام العَلَمُ الذي نسعى إلى التعريف به بلغ هذا الحد من التطواف بالبلدان ولقي اعلاماً مشهورين وصحبهم؟

صحيح أن ابن التلاميد علم شامخ مشهور يعرفه كل من راجع فهارس دار الكتب بالقاهرة، او طالع كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين العلوي الشنقيطي او رجع إلى ملاحظات طه حسين عنه في كتابه الأيام او غير ذلك.

لكن هذا الشيخ الذي كان مشهوراً ذائعَ الصيت قد لقي من التحامل والتحيز الشيء الكثير؛ إذ لا تخلو ترجمته عند من تعرضوا

١٤١٦ هـ سبتمبر (أيلول) ١٩٩٥ م

لذلك من مبالغة في التجريح وتركيز على وصفه بحدة المزاج وتعرض لخصوماته، مع إهمال جانبه العملي وعطائه الأدبي[1]، وهذا ما دفعني إلى التنقيب عن آثاره وأخباره لمحاولة تصحيح الصورة الخاصة التي شاعت عنه وتوضيح مكانته في خريطة الثقافة العربية المعاصرة.

حياة ابن التلاميد

إنّه محمد بن محمود بن أحمد بن محمد التركزي الشنقيطي، اشتهر بمحمد محمود بن التلاميد، والتلاميد تصحيف التلاميذ[2] وهو لقب غلب على أبيه إذ كان يدرِّس تلاميذه في خيمة فدرج الناس على تسميتها بخيمة التلاميد ثم أطلق الاسم على الوالد، ومن ثم على عقبه.

ومحمد محمود من قبيلة تركز وهي قبيلة موريتانية مشهورة، بطونها موزعة بين منطقتي البراكنة وتكانت بموريتانيا ومنها ماهو بالمملكة المغربية.

والنسبة إلى هذه القبيلة تركزي والاسم مشتق من جدهم عبد الرحمن الركاز الذي يُذكر أنه كان رجلاً صالحاً ذا كرامات، كما يُذكر أن نسبه يرجع إلى عقبة بن نافع الفهري حسب الرواية المشهورة، وتقول الرواية إنه من ضمن جيش أبي بكر بن عُمر اللمتوني أمير المرابطين المشهور في القرن الهجري الخامس.

وتتضارب الروايات حول تاريخ ميلاد محمد محمود بن التلاميد، ومن أشهرها رواية أحمد تيمور في كتابه أعلام الفكر الإسلامي الذي يجعله سنة ١٢٤٥ هـ = ١٨٢٩ م[3].

أما لويس معلوف فيذكر في معجمه «المنجد» أن ميلاده كان سنة ١٢٣٢ هـ = ١٨١٦ م، وعدم الدقة في تحديد ميلاد ابن التلاميد يعود أساساً إلى عدم اعتناء المجتمع البدوي الذي ولد فيه وترعرع بتدقيق التواريخ وتعيينها.

أما مكان الميلاد فهو ضواحي أشرَمْ بمنطقة تكانت في وسط موريتانيا.

وقد عرفت موريتانيا في القرن الهجري الثالث عشر (التاسع عشر الميلادي) نشاطاً علمياً متعدد الجوانب متشعب التخصصات، إذ بلغ الاعتناء بعلوم الثقافة العربية الإسلامية ذروته تعلماً وتعليماً وشرحاً وتاليفاً، حين كانت المدارس الأهلية المعروفة بالمحاظر تنتشر في جميع المناطق حيث العلماء المؤلفون والشعراء النابغون والطلاب الحفظة.

حفظ ابن التلاميد القرآن الكريم في سن مبكرة، وأخذ مبادىء الفقه واللغة على والده وبعض أفراد أسرته، إذ كانت لهم يد طولى في العلم، ثم انتقل لتحصيل العلم أخذاً عن الشيوخ والعلماء كما جرت العادة بذلك في بلاد شنقيط.

ومن شيوخه المشهورين عبد الوهاب بن اكْتُوَشْني المشهور باجْدُودْ بن اكْتُوَشْني العلوي المتوفى سنة ١٢٨٩ هـ = ١٨٧٢ م، ومعلوم أن ابن اكْتُوشْنِي هذا من أئمة اللغة في بلاد شنقيط، فقد أخذ عن اللغوي الماهر بُلا من مَكْبَدْ الشقروي المتوفى سنة ١٢٧٣ هـ = ١٨٥٦ م الذي أخذ بدوره عن شيخ النحاة الشناقطة المختار بن بُونَا الجكني المتوفى سنة ١٢٢٠ هـ = ١٨٠٥ م، وتعدّ هذه المدرسة النحوية أهم مدرسة في بلاد شنقيط في القديم؛ إذ كان المختار بن بونا المذكور واسطة عقد الدراسات

اللغوية الشنقيطية ومنه تفرعت أغلب مدارس البلاد اللغوية. ولعل هذا ما يفسر لنا الهاجس اللغوي القوي الذي ظل هَمّ ابن التلاميد وشغله الشاغل دائماً، وكانت أغلب معاركه العلمية ذات طابع لغوي.

ويذكر العلوي في كتابه الوسيط أن ابن التلاميد أخذ الحديث عن ابن الأعمش الجكني صاحب المحظرة الكبيرة في تيندوف بالجزائر(٤).

ولم يغادر ابن التلاميد بلاد شنقيط حتى تضلع من العلوم الإسلامية فقهاً وسنة ولغة وأدباً فأصبح العالم المتبحر والباحث المدقق واللغوي الماهر والشاعر المفلق. وكان يجمع مع كل هذا قوة العارضة والدفاع عن الرأي والشك المنهجي، كما سنقف على ذلك.

صفاته وأخلاقه

وصف أحمد حسن الزيات شيخه ابن التلاميد وصفاً خُلقياً وخَلقياً، فذكر أنه كان شخصاً «ينصَرُّ كما يقولون في صُرَّة» ويشرح الزيات ذلك قائلاً: إنه «هيكل ضئيل وبدن نحيل ووجه ضامر ولون أخضر وصوت خفيض، فمن يره أول مرة لا يصدق أن هذا الجرم الصغير قد جاب البر والبحر وطاف الشرق والغرب وكافح الأنداد والخصوم ووعى صدره الضيق معاجم اللغة وصحاح السنة ودواوين الشعراء وعلم الأدب. وكان يلبس قفطاناً أبيض من القطن، ويرتدي جبة دكناء من الصوف، ويعتم عمامة مكية قد أرخى لها عَذَبة على ظهره»(٥).

ويصف الزيات مجلس ابن التلاميد وحديثه، وبيته وأثاثه وصفاً دقيقاً ممتعاً.

ويبدو أن ابن التلاميد كان سفير الشناقطة وهو بالمشرق، ويبدو أن بيته كان محل نزولهم ونزلهم، وأن جاهه وعلاقاته كانت مسخَّرة لهم وهم مارُّون بمصر أو نازلون بالحجاز.

فيحدثنا محمد الأمين بن فال الخير الحسني الذي حج مطلع القرن الهجري الثالث عشر ومر في ذهابه بمصر أنه نزل على ابن التلاميد الذي أخذه معه برفقة بعض الشناقطة وعرفهم بالإمام محمد عبده وأخذ لهم رخصة سفر من ميناء السويس إلى ميناء جدة بالسعودية(٦).

وتذكر بعض الروايات نزول العلامة محمد يحيى بن محمد المختار الولاتي (ت ١٣٣٠ هـ = ١٩١٢ م) على ابن التلاميد، كما تورد الرواية نفسها حواراً بين العالمين، يدل على تمكنهما من ناصية اللغة العربية واتساع مداركهما في ذلك المجال.

ومن صفات ابن التلاميد البارزة التي نوّه بها كل من عرفه قوة الذاكرة؛ فقد كان كما يقول أحمد حسن الزيات: «آية من آيات الله في حفظ اللغة والحديث والشعر والأخبار والأمثال والأنساب، لا يند عن ذهنه من كل أولئك نص ولا سند ولا رواية»(٧).

ويذكر طه حسين في كتابه الأيام حديثاً عن ابن التلاميد نورد منه قوله: «كان أولئك الطلبة الكبار يتحدثون بأنهم لم يروا ضريباً للشيخ الشنقيطي في حفظ اللغة ورواية الحديث سنداً ومتناً عن ظهر قلب.. كانوا يذكرون له مكتبة غنية بالمخطوط والمطبوع في مصر وفي أوروبا وأنه لا يقنع بهذه المكتبة وإنما ينفق أكثر وقته في دار الكتب قارئاً أو ناسخاً»(٨).

وكان ابن التلاميد حادّ الطبع قوي العارضة جوابه حاضر ودليله مقنع مفحم ولسانه سليط، وهذه كلها صفات طبعت شخصيته وأثرت في علاقاته، وكثُرت أعداءه. وصدق عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال: «ماترك الحق لعمرَ من صديق»، كذلك ابن التلاميد لم يترك له الحق من صديق.

رحلته

انطلق محمد محمود من بلاده موريتانيا في تاريخ نجهله، وغير بعيد أن يكون مطلع ثمانينات القرن الهجري الثالث عشر أي العقد السابع من القرن التاسع عشر الميلادي. وكان يومها قد قارب عمره الخمسين، انطلق محمَّلاً بزاد علمي عميق وحافظة قوية وذاكرة تستحضر النصوص شعراً ونثراً كلما تطلب الأمر ذلك، بالإضافة إلى قريحة جياشة مع ولع بالمطالعة وشغف بالتحصيل.

وبالرجوع إلى كتاب الحماسة الذي دوّن فيه المؤلف جانباً هاماً من أخباره ومعاركه نستنتج أنه مرّ بالمغرب ومصر وغيرهما من بلدان شمال إفريقيا[9]. ولكن هل اقام واستقر في أثناء مروره بهذه الأماكن ولقي العلماء كعادة أمثاله، أم كان مروره مرورَ الكرام؟

إذا استثنينا إشارة صاحب الوسيط إلى أخذ ابن التلاميد الحديث عن عالم تيندوف ابن بلعمش الجكني بالجزائر في أثناء سفره نحو البقاع الطاهرة فإننا لا نجد ذكراً لأي علاقة علمية خلال سفره هذا. ولعل ابن التلاميد كان مصمماً على الوصول إلى البقاع الطاهرة مقدماً تأدية فريضة الحج وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم على غيرها من الروابط التي قد تشغله عن هذه المهمة الدينية النبيلة.

هذا مع العلم أن أغلب العلماء الموريتانيين الذين شدوا الرحال إلى البقاع الطاهرة قد تركوا تأثيراً في جميع المدن والبلدان التي مروا بها، نشير فقط إلى علاقات المجيدري بن حب الله اليعقوبي بالعالم المصري مرتضى الزبيدي، وعلاقات محمد يحيى الولاتي بعلماء تونس والمغرب وعلاقات الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني المشهور بآبّه بن اخطور بعلماء السودان وعلاقات الطالب أحمد بن طوير الجنة الحاجي بعلماء المغرب وليبيا وقد دونوها في رحلاتهم[10].

ابن التلاميد في المشرق

أولاً : المرحلة الحجازية

أدّى ابن التلاميد فريضة الحج سنة ١٢٨٣ هـ وشدّ الرحال إلى المدينة المنورة فحلّ بها فاتح المحرم سنة ١٢٨٤ هـ الموافق ٥ مايو ١٨٦٧ م، وقد اتصل ابن التلاميد بعلماء الحجاز وخاصة عبد الجليل براده شاعر الحجاز وعالمه، كما اتصل في أثناء ذلك بشريف مكة عبدالله بن محمد بن عون فآواه وأكرمه وأجل قدره وبجله.

وكان شريف مكة يوقع بينه وبين علماء الحجاز، لأنه كان يهوى مجادلات العلماء. وقد وجد في ابن التلاميد ذي العارضة القوية والدفاع عن الرأي بغيته، ولكن بقدر ما زادت خصومات ابن التلاميد من شهرته وجعلت

الناس تهاب صولته وتخاف سلاطة لسانه فإنها ولّدت جفوة بينه وبين العلماء ظلت تزداد مع الزمن[11].

ثانياً : المرحلة التركية

طار صيت ابن التلاميد في الخافقين ومالبث أن بلغ الباب العالي في الآستانة فاستقدمه السلطان عبد الحميد الثاني. فرحل إلى تركيا. وكلفه السلطان سنة ١٣٠٤ هـ = ١٨٨٦ م بمهمة علمية وهي رحلة إلى إسبانيا وباريز ولندن من أجل تسجيل فهرس للمخطوطات العربية بهذه الاماكن ليوضع في مكتبة الآستانة، وقد شرط ابن التلاميد شروطاً على الباب العالي من اهمها النظر في وقف المغاربة بالحجاز الذي كان الشناقطة محرومين منه، ولما لم يلب الباب العالي تلك الشروط فإن ابن التلاميد لم يسلّم نسخة الفهرس التي جاء بها من رحلته احتجاجاً على رفض البلاط لمطالبه.

ومن مظاهر شهرة ابن التلاميد أنه في أثناء إقامته بالعاصمة العثمانية الآستانة وبالتحديد سنة ١٣٠٦ هـ = ١٨٨٨ م دُعيَ من لدن المجمع العلمي السويدي باستوكهولم وهو مجمع تحت رعاية الملك اسكار الثاني، وقد كان الهدف من تلك الدعوة التي وجهتها السويد إلى الباب العالي ونصت من خلالها على حضور ابن التلاميد هي مشاركة هذا العالم الفذ في جلسات المجمع المذكور التي يحضرها وجوه المهتمين بالثقافة العربية الإسلامية من مستشرقين وغيرهم.

وقد كلف سفير السويد بمصر يومها وهو كارلو دي لندبرج الذي كان مستشرقاً عارفاً باللغة العربية وقد انتحل اسم عمر السويدي لنفسه ووقع بها على اعماله وبحوثه باللغة العربية، كلف هذا السفير بإبلاغ ابن التلاميد هذه الدعوة، فالتحق به بالآستانة، وطلب منه إنشاء قصيدة على منوال العرب الفصحاء في مدح أسكار الثاني ملك السويد.

وقد أنجز ابن التلاميد الطلب إلا أنه اشترط على الباب العالي من جديد إنجاز وعوده السابقة التي لم تلب لكي يتسنى له الذهاب إلى استوكهولم، فامتنع الباب العالي من جديد وأمرَ ابن التلاميد بالرجوع إلى الحجاز ولم تتم الرحلة لذلك السبب.

والقصيدة التي أنشأها ابن التلاميد وهو يستعد للسفر إلى استوكهولم أوردها بتمامها في كتابه «الحماسة السنية» وهي طنانة تبلغ مائتين وستة أبيات، ومطلعها:

ألا طرقت ميٌّ فتىً مطلع النجم
غريباً عن الأوطان في أمم العجم
فتىً من مُصاص العرب قد جاء شاكياً
تعدّيَ أهل الجور والظلم والهضم

وبعد المقدمة الغزلية المعهودة عند الشعراء القدماء يتخلص الشاعر إلى موضوع القصيدة وهو الفخر قائلاً:

فقالت ودمع العين يحدر كحلها
على حرّ وجه لا دميم ولا جهم
أأنت الذي اختارتك من أهل طيبة
ملوك السويد في مجادلها الشمّ
فرامت من السلطان بعثك وافداً
عليهم خصوصاً أجلَ مجمعها العلمي
فكان من السلطان أمرك بعدما
شرطت أموراً لم تصادف أولي عزم

إلى أن يقول مخاطباً أسكار ملك السويد:

نحلتك مــدحي إذ علت بك همــةٌ
فراسلت تبغيني لتنهلَ من علمي

ونوّهت لي باسمي وما كان خاملاً
لتجمع بين الاسم عندك والجسم

فحبّرت باسمي خطبة عربية
فسارت بها الركبان في النّجد والتّهم

ومافي ملوك الروم قبلك من رجا
حضوري لديه لاشتهاريَ بالعلم

مساديُ كلّ الناس للطعم وحــده
ومساديتا اسكار للعلم والطعم

ثم يخصص بعد ذلك للفخر بنفسه، من ذلك قوله:

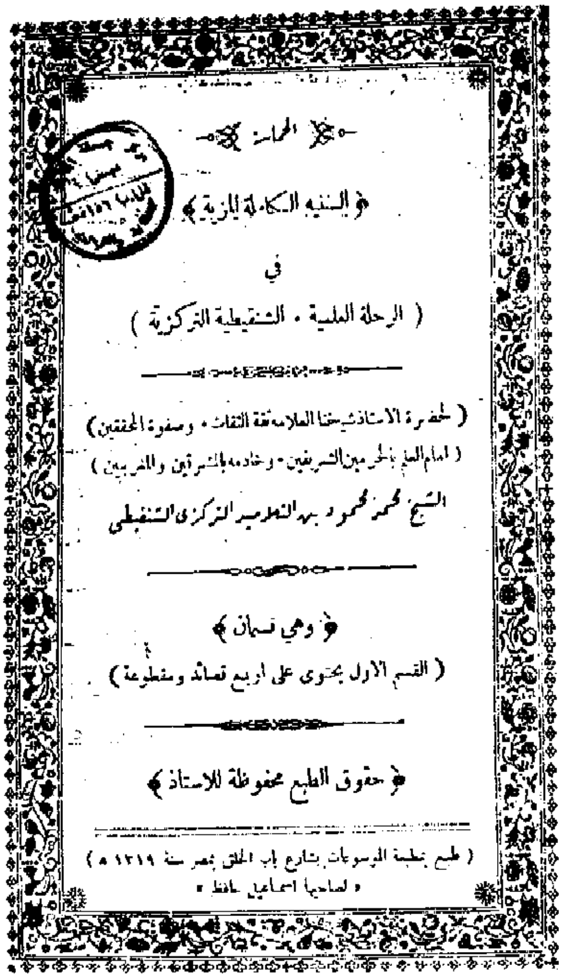
انا المغربيّ المشرقيّ حـمـيـة
اذب عن القطرين بالسيف والسهم

بسيفِ لسانٍ يفلق الصخرَ غربُهُ
وسهم بنان صائبٍ ثُغرة المرمي

ثم يذكر في القصيدة بعد ذلك استنباطاته في مجال اللغة وتخطيئاته للعلماء، ويذكر مشاهير النحاة الذين لم يقفوا على استنباطاته رغم تقدمهم عليه وتأخره عنهم.

ثم بعد ذلك ينعى نفسه نعياً بليغاً مؤثراً ويقول: إنه لن يبكي عليه بعد موته سوى الكتب وأصدقائه العلماء كمفتي الديار المصرية محمد عبده، ويذكر الكتب التي باشر تصحيحها وتولى نشرها كالمخصص لابن سيده والقاموس المحيط للفيروزابادي:

تذكرت من يبكي عليّ فلم اجـد
سوى كتبٍ تختان بعديَ او علمي


الحماسة
السنية الكاملة المزية
في
(الرحلة العلمية . الشنقيطية التركزية)
(لحضرة الاستاذ شيخنا العلامة الثقات . وصفوة المحققين)
(امام العلم بالحرمين الشريفين - وخادمه بالشرقين والمغربين)
الشيخ محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي
وهي قسمان
(القسم الاول يحتوي على اربع قصائد ومقطوعة)
حقوق الطبع محفوظة للاستاذ
(طبع بمطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر سنة ١٣١٩ هـ)
لصاحبها اسماعيل حافظ

وغير الفتى المفتي محمّد عبده الصّ
ديق الصدوق الصادق الودّ والكلم.

سيبكي علي العلم والكتب بعدما
وضعت على اعناق أوهامها وسْمي

مُخَصّصها المطبوع يشهد مفصِحاً
بما حاز من ضبطي الصحيح ومن رمّي

وقاموسها المشهور يشهد في الضحى
بذاك وفي بيضِ الليالي وفي الدهم(١٢)

ومعلوم أن الطبعة التي بين أيدينا اليوم من معجم القاموس للفيروزابادي قد صححها ابن التلاميد وضبطها بالشكل.

ثالثاً : المرحلة المصرية

ألقى محمد محمود بن التلاميد التركزي عصا تسياره واستقر به النوى بالقاهرة بعد أن استفحل الخلاف بينه وبين الحجازيين واستعدوا عليه الوالي يومها، وكانت القاهرة ومازالت محط رحال طلاب العلم وموئل العلماء وربع عزتهم، يجدون فيها المدارس المشيدة والمكتبات الغنية والعلماء الأفذاذ ودور النشر الكبيرة والصحف.

لم يجد ابن التلاميد عرقلة في الاندماج في مجتمع القاهرة الثقافي بل إنه من المؤكد أن أخباره وصلتهم قبل حلوله بين ظهرانيهم إذ ما لبث أن احتل مكان الصدارة وتلقته الوجوه بالبشر وانفتحت أمامه الأبواب بمصر.

وقد توثقت صلاته بأكابر القوم أمثال توفيق البكري والعلامة مفتي الديار المصرية محمد عبده وتلاميذه كرشيد رضا وغيره كما اتصل ابن التلاميد بالشاعر الكبير محمود سامي البارودي واستحكمت بينهما المودة ووشائج المحبة[١٣].

وبلغت قيمة ابن التلاميد بالقاهرة حداً جعل الإمام محمد عبده يسند إليه تدريس اللغة العربية بجامع الأزهر، وكانت هذه المادة مهملة قبل مجيئه، وأجرى عليه رزقاً من الأوقاف[١٤].

استقر ابن التلاميد بالقاهرة واستقدم زوجته وابنه من المدينة المنورة وظل عطاؤه العلمي متواصلاً تأليفاً وتحقيقاً وتدريساً ونشراً حتى وفاته قبيل الغروب يوم الجمعة ٢٣ شوال ١٣٢٢ هـ = ديسمبر ١٩٠٤ م.

وكان ابن التلاميد قد حضر تشييع جنازة صديقه الشاعر البارودي، وقد جاوز التسعين، فلم يتمكن من متابعة السير في الموكب، فحمل إلى داره، وتوفي في اليوم التالي رحمه الله تعالى.

آثاره

ترك ابن التلاميد ثلاثة أنماط من الآثار:

أ - كتب مؤلفة أو محققة.

ب - معارك ومساجلات علمية.

ج - شعره.

هذا فضلاً عن اعتنائه بجمع المخطوطات واقتنائها. وتشكل المكتبة الشنقيطية جناحاً هاماً من مخطوطات دار الكتب المصرية بالقاهرة.

آ - كتبه

١ - إحقاق الحق وتبرئة العرب مما أحدثه عاكش اليمني في لغتهم (مخطوط).

٢ - أشهر الكتب العربية الموجودة بخزائن إسبانيا (مخطوط).

٣ - تصحيح الأغاني (مطبوع).

٤ - الحق المبين (مخطوط).

٥ - الحماسة السنية في الرحلة العلمية (مطبوع).

٦ - شرح المفصل في النحو (مخطوط).

٧ - عذب المنهل والمغل في صرف ثعل (مخطوط).

٨ - عروس الطروس (مخطوط).

ب - معاركه العلمية

والمهم فيها ليس المعركة في حد ذاتها، أي

ليست علاقة التنافر بين الأشخاص وتنابزهم ومناقضاتهم هي الأساس، بل إن المواضيع التي كانت محور الخلاف وطريقة معالجتها وأهميتها المعرفية وما إذا كانت أضافت شيئاً جديداً في مجال البحث هي النقاط التي تهمنا هنا.

وينبغي أن نذكر في البداية أن لخصومات ابن التلاميد سمتين؛ فقد جرت في فترة زمنية طويلة وخاصة في المرحلتين الزمنيتين اللتين قضاهما في الحجاز ومصر. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أبانت هذه المعارك منزلة ابن التلاميد اللغوية العالية، فقد كان على ما يبدو عارفاً بأسرار اللغة العربية وفاهماً لخصائصها ومطلعاً على أساليبها. فضلاً عن مكانته الفقهية ومعرفته الواسعة بالحديث متناً وسنداً.

ومن أهم الأشخاص الذين خاضوا معارك مع ابن التلاميد: أحمد البرزنجي وصالح الوتري وعبد الجليل براده في المدينة المنورة والبنبلي في تونس وحمزة فتح الله وسليم البشري وعبد الكريم بن سلمان في القاهرة.

وكانت خصومات ابن التلاميد مع هؤلاء العلماء عنيفة أحياناً، لا تلتزم في الغالب بقيود الوقار والهيبة، بل تعبّر عن عداء سافر وجفوة متأصلة. وقد ظلت خصوماته مستمرة مع الحجازيين حتى وهو بالديار المصرية.

وكتاب الحماسة السنية في الرحلة العلمية للمترجم أهم مصدر تناول هذه المعارك ففصل أخبارها وبين أسبابها ووضح تطوراتها وحدّد مواضيعها.

ولنستعرض إحدى معاركه كما أوردها أحمد حسن الزيات في مقال تعريفي بابن التلاميد.

يقول: «اجتمع الشنقيطي ليلة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في دار السيد عبد الباقي البكري بجماعة من كبار العلماء يتصدرهم إمام المالكية الشيخ سليم البشري، فحلا لبعضهم أن يتحرش بالشنقيطي، فسأله سؤال المنكر عن رأيه في صرف عمر وخروج ابن التلاميد عن إجماع النحاة في هذه المسألة، فقال: إنما صرفته بالأدلة القاطعة والشواهد الصريحة، وخطّأتُ جميع النحويين من سيبويه إلى ابن هشام في قولهم إن عمر ممنوع من الصرف لأنه معدول عن عامر، والحق اليقين أنه جمع لعُمرة وهي الحج الأصغر، وبه سمي عمر بن الخطاب ومن قبله ومن بعده، فهو علم منقول عن جمع نكرةٍ وماكان كذلك من الأعلام صُرِفَ إتْباعاً لأصله ككِلاب وضِبَابٍ وأنصارٍ وأنمارٍ، وجمعت من الشواهد على صرف عمر مائة شاهد ونيفاً. منها قول كعب الأشقري:

يا أيها الزاري على عُمَرٍ
قدْ قلتَ فيهِ غيرَ ما تعلَمِ

ومنها قول بشار العقيلي:

إذا أيقَظتكَ حروبُ العِدَا
فَنَبِّهْ لها عُمَراً ثم نَمْ

فقال الشيخ عبد الكريم سلمان: «ولِمَ لا يكون التنوينُ في بيت بشار للضرورة، وتكون الرواية في بيت كعب بالفتح الممدود لا بالكسر المنون؟» فقال في حدة عصبية ولهجة مغربية: إنك بالعروض أجهل منك بالنحو ومثلك لا يناقش. فهمّ الشيخ سلمان بالرد، ولكنَّ الشيخ البشري مال بالنقاش إلى جهة يراه القوم فيها واحد الآحاد وهي السُّنة، فقال للشنقيطي: إنك تلبس

خفين أسودين وذلك من لباس النصارى! فقال: إنما البس ماكان يلبس رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما أنتم فتلبسون الخفاف الحمر وهي لباس نساء المغرب والخفاف الصفر وهي لباس نساء المشرق!. فأنكر البشري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد لبس خفين أسودين، وقال: إن الإجماع منعقد على خلاف ذلك!. فرد عليه محمد محمود بأن رواية الأثبات تثبت أن النجاشي أهدى الرسول صلى الله عليه وسلم خفين أسودين فلبسهما، ثم انفجر عليه بما روى الترمذي وابن ماجه وأبو داود والبيهقي يؤديه عن ظهر قلب كأنما يتلو من كتاب فلم يجد الشيخ البشري رحمه الله درءاً لهذا السبيل إلا أن يطعن في الرواية والرواة». ويقول أحمد حسن الزيات معقباً على القصة: «وانتقلت المجادلة من دار البكري إلى دور الصحف، فكتب الشيوخ ورد عليهم الشيخ، واستطار الخلاف أكثر العام فسماه الناس «(عام الخفين الأسودين)»[١٥].

وكان من عادة ابن التلاميد أن يصب غضبه على خصومه وينعتهم بأسوأ الصفات فأحمد البرزنجي وأسرته يطلق عليهم «أبناء درزة» وينفي انتسابهم للشرف ويلحقهم بالأعاجم ويطعن في عقائدهم.. أما خصمه التونسي العربي زروق فينعته بذي الوجهين، ويلقب عبد الجليل براده «عبد الجهل».

وقد كان رد خصوم ابن التلاميد عنيفاً ولم يسلم من التجريح الشنيع والتطاول والشتم الشخصي حتى إنه أحياناً يتجاوز ابن التلاميد ليعم الشناقطة كلهم، يقول عبد الجليل براده في أحد ردوده على ابن التلاميد متحدثاً عن الشناقطة: «إن كثيراً منهم تحول خشونة البدو بينه وبين صناعة الفهم ومقالة الراي، وتورثه في النظر والحجاج الحصر، والعيّ فإن حاجُّوا حُجُّوا وإن قاموا في مقام ضيق لم يخرجوا»[١٦]. وذلك ما يوحي أن الخصومات أحياناً قد تنزل عن المستوى المراد منها، فيترك المتخاصمان مادة الخلاف وموضوعه ليدخلا مداخل تلطيخ الأعراض وذكر الصفات الشخصية بشنيع العبارات فيغيب موضوع الخلاف وراء اندفاعات الغضب، ويتحول الخطاب إلى سجال مزاجي يتراشق أصحابه بنار الشتم.

إلا أن هذا لم يمنع تلك الخصومات الشديدة والمشاحنات الساخنة من أن تخدم العلم والبحث.

ولعل سائلاً يسأل: ما مكانة ابن التلاميد وماذا ترك للعربية بعد أن قلنا إنه كان من أعلامها المرموقين؟

مكانة ابن التلاميد

لقد ذكرنا آنفاً رحلة ابن التلاميد نحو الغرب وخاصة إسبانيا وفرنسا وبريطانيا وكيف جمع فهرساً عاماً لنوادر المخطوطات العربية سنة ١٣٠٤ هـ = ١٨٨٦ م، وربما لا يكون هذا العمل عملاً شاقاً بمقاييسنا اليوم بعد أن تمهدت طرق الاتصال وتعددت قنواته بين العالم العربي وأوروبا، ولكن عمل ابن التلاميد هذا يعد مكسباً في تلك الأيام التي كان يتعذر فيها الاطلاع على المكتبات وتنعدم إذ ذاك وسائل الفهرسة.

وقد أشرنا آنفاً إلى تدريس ابن التلاميد مادة اللغة العربية في جامع الأزهر بإملاء من الإمام محمد عبده، ونضيف إليه حديث طه حسين في كتابه «الأيام» عن درس الشيخ الشنقيطي حديثاً يجمع – على عادة طه حسين – بين إعجاب المنبهر وسخرية الناقد..

فقد كان عميد الأدب معجباً بعلم الشيخ الشنقيطي منوهاً بقدراته الذهنية منبهراً بذاكرته القوية، وكان في الوقت نفسه غيرَ مرتاح لطريقة ابن التلاميد في التدريس آخذاً عليه مزاجه الحادّ ونقده اللاذع.. يقول طه حسين: «كان أولئك الطلاب الكبار يتحدثون بأنهم لم يروا قط ضريباً للشيخ الشنقيطي في حفظ اللغة ورواية الحديث سنداً ومتناً عن ظهر قلب»[17].

ولا شك أن مقام ابن التلاميد في القاهرة وتفرغه للبحث – على الرغم من خصوماته الحادة – قد أفاد المكتبة العربية كثيراً، فقد عكف على نشر ذخائر المخطوطات وأمهات الكتب. فنشر هناك أطروحاته اللغوية القائمة أساساً على الشك في بعض القواعد اللغوية ومناقشة النحاة فيها، وخطّأهم من سيبويه إلى ابن هشام.

ولن نذهب بعيداً فنقول: إن طه حسين قد تأثر بالشنقيطي حين شك في صحة كثير من الشعر الجاهلي في كتابه المشهور عن هذا الشعر ففي ذلك مبالغة.

إن ابن التلاميد يستحق من الاحترام والتقدير ما يستحقه طه حسين، لا لشجاعته وجرأته النادرة فحسب – كما يقول الخليل النحوي – بل لسبقه عميد الأدب في إثارة عاصفة الجدل حول الموروث[18].

لقد نال طه حسين شهرته بين النقاد المحدثين والأدباء المعاصرين عندما شك في جملة من المقولات تحيط بالشعر الجاهلي، وتصدى عميد الأدب بجرأته المألوفة وبيانه البليغ لمخالفيه، وعلينا أن نعطي ذلك التقدير لابن التلاميد الذي أثار هو الآخر زوبعة الجدل حول بعض المسائل القديمة لا لمجرد الشك بل خدمة للعلم وسعياً إلى تطوير البحث.

وفي الختام ينبغي أن ننبه إلى المكانة الشعرية الخاصة التي تميّز ابن التلاميد والتي تستحق دراسة مستقلة، إذ يبلغ مجموع ما في كتابه «الحماسة السنية» من شعره ألفاً وخمسة وعشرين بيتاً في أغراض شعرية مختلفة، لا يسع المجال هنا لتناولها، ونرجو أن تتاح لنا فرصة للحديث عنها إن شاء الله تعالى.■

الحواشي

١ – ابن الامين العلوي. الوسيط في تراجم ادباء شنقيط، ص ٣٨١.
٢ – الزركلي، خير الدين. الاعلام ٧:٨٩.
٣ – تيمور، احمد . اعلام الفكر الإسلامي. ص ٣٦٨.
٤ – ابن الامين العلوي . الوسيط في تراجم ادباء شنقيط ، مرجع سابق، ص ٣٨١.

٥ – عن علاقات ابن التلاميد راجع المرجع السابق، وكذلك: أحمد حسن الزيات في مقاله: كيف عرفت الشنقيطي مجلة الأزهر، ربيع الآخر ١٣٨١ سبتمبر ١٩٦١، المجلد ٣٣ ص ٣٩١ ومابعدها).

٦ – عبد اللطيف الدليشي الخالدي . محمد أمين الشنقيطي، بغداد: وزارة الأوقاف، ١٩٨١، ص ٢١٤.

٧ – راجع أحمد حسن الزيات . مرجع سابق، ص ٣٩٣.

٨ – حسين، طه . المجموعة الكاملة لأعمال طه حسين، بيروت: دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢، ١: ٣٤٣.

٩ – يذكر ابن التلاميد في كتابه «الحماسة» أنه حمل إلى أديب الحجاز عبد الجليل براده بالمدينة المنورة مكتوبات من أبناء عمه في فاس ومصر وجده، انظر ابن التلاميد . الحماسة السنية ص ١٠٤.

١٠ – انظر:

– الشنقيطي، محمد الأمين. رحلة إلى بيت الله الحرام، بيروت: دار الشروق، ١٩٨٤.

– الجنة، الطالب أحمد بن اطوير. رحلة المني والمنة (مخطوط بحوزتي).

– الولاتي، محمد يحيى. الرحلة الحجازية، بيروت: ١٩٩٠، ص ١٥٧ – ١٥٨.

– الخليل النحوي. بلاد شنقيط المنارة والرباط، تونس، ١٩٨٧.

١١ – انظر ابن الأمين الشنقيطي. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مرجع سابق، عن علاقات ابن التلاميد بشريف مكة ص ٢٨١، ومن أبرز مناظرات ابن التلاميد في الحجاز أمام شريف مكة ما جرى بينه وبين عاكش اليمني، وقد ألف ابن التلاميد كتابه «إحقاق الحق» رداً على عاكش اليمني ومازال مخطوطاً.

١٢ – انظر هذه القصيدة في كتاب الحماسة السنية للمؤلف ص ١٤.

١٣ – عن علاقات ابن التلاميد انظر المرجع السابق، وكذلك: أحمد حسن الزيات في مقاله: كيف عرفت الشنقيطي ص ٣٩٢.

١٤ – الزيات، أحمد حسن. كيف عرفت الشنقيطي ص ٣٩٢.

١٥ – المرجع السابق.

١٦ – ابن التلاميد. الحماسة السنية، ص ٥٤.

١٧ – حسين، طه. المجموعة الكاملة، مرجع سابق، ١: ٣٤٣

١٨ – الخليل النحوي. بلاد شنقيط المنارة والرباط، تونس: ١٩٨٧، ص ٢٧٠.

المصادر والمراجع

– ابن الأمين العلوي، أحمد. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط . ط٤. القاهرة، ١٩٨٤.

– الجنة، الطالب أحمد بن اطوير. رحلة المني والمنة (مخطوط بحوزتي).

– تيمور، أحمد. أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث. القاهرة، ١٩٦٧.

– حسين، طه. المجموعة الكاملة لأعمال طه حسين، بيروت : دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢.

– الخالدي، عبد اللطيف الدليشي. محمد أمين الشنقيطي، بغداد: وزارة الأوقاف، ١٩٨١.

– الزركلي، خير الدين. الأعلام . ط٤، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩.

– الزيات، أحمد حسن. كيف عرفت الشنقيطي، مجلة الأزهر المجلد ٢٢، ربيع الآخر ١٣٨١ سبتمبر ١٩٦١.

– الشنقيطي، محمد الأمين. رحلة إلى بيت الله الحرام . بيروت : دار الشروق، ١٩٨٤.

– محمد محمود بن التلاميد التركزي: الحماسة السنية . القاهرة، ١٣١٩.

– الخليل النحوي. بلاد شنقيط المنارة والرباط . تونس، ١٩٨٧.

– الولاتي، محمد يحيى. الرحلة الحجازية . بيروت، ١٩٩٠.